۳۶۵۸۶

مجله	حضارة الاسلام
تاریخ نشر	ربیع الاول ۱۳۸۷
شماره	یک سال نهم
شماره مسلسل	
محل نشر	دمشق
زبان	عربی
نویسنده	عبدالقادر السبسبی المحامی
تعداد صفحات	۴۴ - ۴۹
موضوع سرفصلها	القرآن والمستشرقون
کیفیت	
ملاحظات	

القرآن والمستشرقون

للأستاذ عبد القادر السبسبي المحامي

اطلعت على كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) للمستشرقة (زيغريد هونكه) الذي يحكي عن اثر الحضارة العربية في أوروبة ، فوجدته كتابا جامعا وافيا لولا ان فيه هنات لايجوز السكوت عنها . وهذا مادعاني ان اكتب هذا المقال تنبيها الى الاذهان مما وقعت فيه المؤلفة (زيغريد هونكه) من الاخطاء..

ورد في الصفحة ٥١١ بان اللغة العربية مطواعة في الفاظهـا ، وان قصيدة الشنفرى(١) تعطينا الصورة الواضحة عن قوة التصوير بلغة الصحراء ؛ حيث كانت الضباع والذئاب رفيقة هذا الانسان . وقد برهنت على ما زعمته بقصيدته . ومطلعها :

اديم مطال الجوع حتى اميتـه
واضرب عنه الذكر صفحا فاذهل

ثم قالت : انظر كيف استطاع نثر محمد الذي اتى مبشرا فسيطر على ذاك الانسان الشاعر ودخل الى اعماقه » واستشهدت على ذلك بسورة التكوير (اذا الشمس كورت) الخ معبرة بذلك ان القرآن من نثر محمد عليه الصلاة والسلام ثم قاسته بكلام ذلك العربي صاحب القصيدة الصعلوك .

ولما كانت هذه السورة الكريمة من القرآن العظيم ، وان القرآن جميعه من كلام الله تعالى ، ولا يجوز لاحد ان ينسبه الى مخلوق مطلقا ، ولا ان يشبهه بكلام بشر ما ، او يقيسه على كلام احد ما نثرا كان أو شعرا لانه اذا قلنا ان السيف أحسن من العصا يكون ذلك تحقيرا للسيف .

وبما اني لم ار احدا من العلماء او الادباء تعرض الى هذه الناحية الهامة المتعلقة في صميم القصيدة حتى ولا السيدين فاروق بيضون وكمال دسوقي المعربين لهذا الكتاب ، فقد كنت آمل ان يشيرا الى ذلك اثناء تعريبهما أو تحقيقهما له ، على اني

(١) هو : ثابت بن اوس الازدي شاعر الصعاليك

اغض الطرف عن الخواجه فاروق عيسى الخوري الذي راجعه ووضع حواشيه لانه لايزيد درجة عن المؤلفة (زيغريد هونكه) بمعرفته حقيقة القرآن . لذلك رايت من واجبي ان اوضح ذلك واصحح ما وقعت المؤلفة فيه من الاخطاء ليكون القارىء على بينة من أمره .

١ ـ مصدر القرآن :

القرآن الكريم كتاب الهي ووحي سماوي نزل به الروح الامين على قلب خاتم النبيين وامام المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم ، ليحيي قلوبا اماتتها الشهوات ، وينقذ عقولا سممتها الشكوك والشبهات ويهدم به عروشا اقامها الاقوياء على اشلاء الضعفاء ويفتح به للمدارك ابوابا سدها الكهان من بيدنة البطلان ، ويكشف للاذهان حقائق العلم وطرائق العرفان ، ويسلك بالارواح مسالك الايمان . هذه بعض وظيفة القرآن الشريف التي اداها لبني الانسان كما شهد به اعداء القرآن فاين نحن من فهم هذه الاسرار ، والاشراف على ما اودعت آياته من الانوار .

على ان هذا الكتاب الكريم نهج في تربية الانسان مناهج يجب تمييزها اجمالا وتفصيلا، فقد خاطب العقل وناجى العواطف وحاسب السرائر وآخذ الضمائر وادب الحواس وهذب الملكات وقرر العقائد وحكى حال العالمين من حيث الدين وقاد الكتائب ودوخ الممالك وشيد المدنية الفاضلة وسن الشرائع الكاملة ووضع للمعاملات ناموسها وشرع للبصيرة شرعتها ، وخاطب كل نفس على قدر وسعها فهو دستور الخالق لاصلاح الخلق وقانون السماء لهداية الارض. وهو حجة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وآيته الكبرى ، وهو عماد لغة العرب الاسمى ، تدين له اللغة في بقائها وسلامتها وتستمد علومها منه على تنوعها وكثرتها ، وتفوق سائر اللغات العالمية به في اساليبها ومادتها ، وانقذت الانسانية العاثرة، فكانما خلقت الوجود خلقا جديدا .

لذلك كله ، كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن سلف الامة وخلفها جميعا الى يوم القيامة . وقد اتخذت هذه العناية أشكالا مختلفة ، فتارة ترجع الى لفظه وادائه واخرى الى اسلوبه واعجازه ، وثالثة الى كتابته ورسمه ورابعة الى تفسيره وشرحه الى غير ذلك(١) .

٢ ـ القرآن في اسلوبه :

فالقرآن الكريم انما ينفرد بأسلوبه ، لانه ليس وضعا انسانيا البتة ، ولو كان من وضع انسان لجاء على طريقة تشبه اسلوبا من أساليب العرب ، أو من جاء بعدهم

(٢) صفوة العرفان فى تفسير القرآن (فريد وجدي)

الى يومنا هذا . وعند ذلك لابد من الاختلاف فيه وفي اسلوبه وطريقته ونسقه ومعانيه .

قال الله تعالى : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

ولقد احس العرب بهذا المعنى واستيقنه بلفاؤهم ولولاه ما افحموا ولا انقطعوا من دونه لانهم رأوا جنسا من الكلام غير ماتؤديه طبائعهم، وكيف لهم في معارضته بطبيعة غير مخلوقة(٣).

وقال محمد عبده رحمه الله : « ان لكلام الله تعالى اسلوبا خاصا يعرفه اهله ومن امتزج القرآن بلحمه ودمه ، واما الذين لا يعرفون منه الا مفردات الالفاظ وصور الجمل فاولئك عنه مبعدون » . وقال أيضا: « فهم كتاب الله تعالى يأتى بمعرفة ذوق اللغة وذلك بممارسة الكلام البليغ منها(٤) » .

٣ ــ محمد تلقى القرآن بواسطة الوحي :

ان القرآن هو المعجزة العقلية الخالدة التي خص الله بها نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم ليكون للعالمين نذيرا . وفي التعبير عن هذا الاختصاص يقول صلوات الله عليه : (ما من الانبياء من نبي الا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وانما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله الي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة (متفق عليه من حديث ابي هريرة (رضي الله عنه)(٥) يؤيده قول الله تعالى : (وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى) فهو نبي كريم اصطفاه الله سبحانه لحمل اعباء اسرار الرسالة الالهية وانزل عليه القرآن جميعه ، ورضي الله عن كعب بن مالك حيث يقول :

(رسول الله مصطبر كريم
بأمر الله ينطق اذ يقول)

٤ ــ القرآن جامع بين القصص والحكم والسياسة :

قال الله تعالى : « انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون(٦) اي حال كونه يقرأ بلغتكم يا معشر العرب ويبين لكم كل شيء ويجمع لكم كل خير بلسان عربي مبين ظاهر ، يعلمكم مالم تكونوا تعلمون من قصص واخبار وحكم وحكمة وسياسة واجتماع ودين ودولة رجاء أن تعضوا على تلك المعاني وهذه الاغراض بالنواجذ التي تخرج فردا مسلما واسرة مسلمة ومجتمعا نظيفا(٧) .

(٣) اعجاز القرآن (مصطفى الرافعي)
(٤) المصدر السابق ص (٢١)
(٥) علوم القرآن (صبحي الصالح ص٢٥ ، وكتاب شرح الجامع الصغير عدد ٧٩٨١ للمناوي
(٦) سورة يوسف .
(٧) من تفسير الواضح .

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند تفسيره هذه الآية : انا أنزلناه (الآية) بانزاله عربيا ما تضمن من المعاني والاسرار التي لا يتضمنها ولا يحتملها غيرها من اللغات وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات وابينها واوسعها واكثرها تادية للمعاني التي تقوم بالنفوس .

قال بعضهم نزل اشرف الكتب، بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة اشرف الملائكة وكان ذلك بأشرف بقاع الارض وفي أشرف شهور السنة هو رمضان فكمل له الشرف من كل الوجوه(٨) .

٥ ــ ما كل من ذاق عرف :

على أن هذه المؤلفة المستشرقة (زيغريد) لو أنها تذوقت طعم اللغة العربية لميزت بين كلام الاعرابي صاحب لامية العرب المسماة بالشنفرى وبين القرآن العظيم وما نسبت كلام الله تعالى الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي لا يقدر ان يفهم كنهه الا من كان في قلبه نور وايمان (أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه)(٩) (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين(١٠).

فالقرآن العظيم علاوة عن انه اعجز الانس والجن بفصاحته وبلاغته فانه جعل البلاغة الاسلامية ارقى من البلاغة الجاهلية الذين كانت البلاغة فيهم احساسا محضا ثم صار من بعدهم بلاغة هذا العلم في المولدين ، وهو على ذلك ما بقيت الارض والسموات الى يوم القيامة .

٦ ــ بلاغة العربي الجاهلي أدنى طبقة من بلاغة العربي المسلم :

وقد رأينا أن نسوق في هذا الموضع كلاما لابن خلدون(١١) توفية لفائدة ما نحن فيه ويظهر لك من هذا الفصل وما تقرر فيه سر آخر وهو اعطاء السبب في ان كلام الاسلاميين من العرب اعلى طبقة في البلاغة واذوقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم فاننا نجد شعر حسان، وعمر بن ابي ربيعة ، والحطيئة ، وجرير . ثم كلام السلف من العرب في الدولة الاموية وصدرا من الدولة العباسية ارفع طبقة في البلاغة من شعر عنترة وطرفة بن العبد ، ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم . والطبع السليم والذوق السليم شاهدان بذلك للناقد البصير

(٨) تفسير القاسمي .
(٩) الزمر (٢٢) .
(١٠) المائدة (١٥) .
(١١) ابن خلدون / فصل حصول الملكة بكثرة الحفظ /

بالبلاغة والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين ادركوا الاسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثلهما. لكونهما ولجت في قلوبهم ونشأت على اساليبهما نفوسهم، فنهضت طباعهم وارتفعت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، امثال صاحب الشنفرى وعنترة وغيرهما . فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم احسن ديباجة واصفى رونقا من اولئك . وأرصف مبنى واعدل تثقيفا .

٧ ــ فضل ترتيل القرآن وتدبره:

كان ضياء الدين بن الاثير المتوفى ٦٣٧ (وهو صاحب المثل السائر . وكان من مجتهدي ائمة البلاغة في هذه الامة) كان يختم القرآن مرة في كل اسبوع ليبلغ به ، ثم نظر فيه فجعل يقرؤه في شهر ، ثم ابعد في النظر فكان يختمه ، في سنة ثم امعن فقال : انه قطع سبع سنين ولما يفرغ منه ، ولا اتى على الغاية من تدبر ما فيه من انواع البلاغة المستكنة في كلمه وحروفه) .

وعلى هذا تكون المستشرقة (زيغريد هونكه) معذورة في تجرئها على القرآن العظيم وزعمها بأنه من نثر محمد عليه السلام وتمثيله بالقصيدة التي قالها الشاعر الجاهلي، وذلك لعجمتها وجهلها أساليب اللغة العربية ومابين القرآن والشعر العربي من فروق بلاغية . وعليه كان عليها ان تعرف حدها ولا تخطو في امور بعيدة عن فهمها وادراكها سيما وان فاقد الشيء لايعطيه .

٨ ــ لا يعرف الفضل إلا وتعرف ذووه :

وانما يعرف فضل القرآن الكريم من كثر نظره، واتسع علمه وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الاساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات ، فانه ليس في جميع الامم أمة أوتيت من العارضة(١٢) والبيان واتساع المجال ، ما أوتيته العرب خصيصي من الله لما ارهصه(١٣) في الرسول العظيم ــ محمد صلى الله عليه وسلم وارادة عن اقامة الدليل على نبوته بالكتاب فجعله علمه اكما جعل علم كل شيء من المرسلين من اشبه الامور بما في زمانه المبعوث فيه ، ولذلك كان لمحمد صلوات الله عليه هذا القرآن (قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل هذا القرآن

(١٢) العارضه : في اللسان ٩/٤٣ : قوة الكلام وتنقيحه والراي الجيد .

(١٣) في اللسان ٨/٢١٠ وقد ارهص الله فلانا للخير ، اي جعله مبتدئا للخير ومانى ــ والارهاص : الاثبات .

(١٤) كتاب تاويل مشكل القرآن ص/١٠/

لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .

فهذا كله يرد كلام هذه المستشرقة من قولها ان سورة التكوير من نثر محمد صلى الله عليه وسلم .

تنبيه :

كنت قرات مقالا للدكتور عبد الكريم زيدان حفظه الله ، ملخصه : ان الغالب على المستشرقين الهوى والقصد والجهل ، فمن عرف منهم الحق وعرف الاسلام كما هو لم يسلم من الهوى وسوء النية ، ومن سلم منهم من سوء النية اوقعه جهله بمعاني الاسلام باباطيل وافتراءات والقليل جدا منهم من سلمت كتابته من الهوى واقل من هذا القليل من سلمت كتابته من سوء النية والجهل، فيجب عدم اتخاذ كتاباتهم مصدرا للمعرفة بالاسلام ، فان مثل مايكتبه المستشرقون من الاسلام مثل الغابة الكثيفة الملتفة الاغصان ، يدخلها الانسان في ظلمة الليل ولا مصباح معه ، فهو ان امن لسع العقارب والحيات لا يامن نخس الاشواك ، فمن الخير تنبيه العرب والمسلمين وتحذيرهم من شرور المستشرقين والكتاب الغربيين . هذا ما اردت بيانه تنبيها للاذهان وتصحيحا للاخطاء والله من وراء القصد.

قال الله تعالى في معرض التنزيل : ياايها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يالونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من افواههم وما تخفي صدورهم اكبر قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون(١) .

ملحوظة :

هذه احدى الملاحظات التي بينتها على هذا الكتاب ولي عليه ملاحظات اخرى سأفرد لها بحثا خاصا ان شاء الله .

(١٥) آل عمران : ١١٨ .